مقاومة الحاج أحمد باي في الشرق الجزائري 1836-1848.

نبذة تاريخية حول إدارة أحمد باي قسنطينة

إن احتلال الجزائر العاصمة وسقوط حكومة الداي حسين، نصب الحاج أحمد باي نفسه الخليفة الشرعي للسلطة التركية والممثل الوحيد للأمبراطورية العثمانية بالايالة .كما أصبح يتلقب باسم " الباشا" ، وأعاد تنظيم الادارة بالغاء النظام العثماني الذي لم يبق له أي مفعول شرعي، في حين أخذت اللغة العربية المكانة الأولى بالبايلك، وقام باستحداث مناصب جديدة حسب المقتضيات الادارية .وصار يعتبر أيالة الجزائر العاصمة بروابط روحية ودينية.، هذا وبعد أن استتب له الأمر، صك الدراهم باسمه ومهما يكن من أمر، فأن إدارة الحاج أحمد باي، قد تميزت بالجدية والعدالة إلى حد كبير، حيث تجسدت آثار ذلك في تنظيم بايلكه وحسن تسيير ئؤونه .ولم تكن الرعية في عهده تتعرض إلى اضطهاد أو ظلم .**الحاج أحمد باي قسنطينة:** من أسرة كرغلية (أبوه تركي وأمه جزائرية)، ابن محمد الشريف وحفيد أحمد القلي الذي حكم قسنطينة عام 1799م، أما أمه فتدعى الحاجة غنية ابنة بن قانة، التي تنتمي إلى أكبر عائلات عرب الصحراء، وبحكم تربيته العربية الأصيلة وانتمائه إلى الأرض التي ولد وترعرع فيها، وبالنظر إلى انتمائه إلى أسرة أمه ذات الأصول العربية، وبفعل ثقافته العربية الأصيلة فهو مسلم عربي جزائري قسنطيني. ولد حوالي 1786 م ، نشا في بيئة صحراوية عند أخواله، مما أكسبه الرجولة والمروءة والشهامة والشجاعة، تولى وهو في سن الثمانية عشرة وظيفة قائد العواسي"قائد الحرس لقبائل عين البيضاء (وظيفة تعطى فقط لأقارب الباي أو شخصية مرموقة، أو ضابط كبير)، ونتيجة لبعض المشاكل التي اعترضته أثناء أداء مهامه تم إبعاده من الوظيفة، واقترح عليه أداء فريضة الحج. و**الحاج أحمد باي قسنطينة (1784- 1850)** هو آخر بايات الشرق الجزائري ،استمر حكمه كباي مند توليته من طرف الداي حسين عام 1826م إلى غاية سقوط عاصمة بايلكه قسنطينة يوم 13 أكتوبر1837م، بعدها قاد المقاومة ضد المحتل الفرنسي إلى غاية استسلامه سنة 1848 ،غير أن الشيء الجدير بالذكر هو أن الحاج أحمد باي إثر سقوط الجزائر العاصمة في يد المحتل، نصب نفسه " باشا " كخليفة للداي حسين واعتبر نفسه الوارث الشرعي لحكومة الداي (24) المنتهية .كما اعتبر نفسه الممثل الوحيد للدولة العثمانية ورفض أي تفاوض مع الأمير عبد القادر بل رفض الاعتراف به. **مقاومته:** اثر سقوط الجزائر العاصمة، سارع الحاج أحمد باي للعودة إلى عاصمة بايكله، ولكن وهو في طريقه إلى قسنطينة -بلغه أن قبيلة ريغة بسطيف و قبيلة العلمة و قبيلة عامر الغرابة، كلها متأهبة للانقضاض عليه بزعامة المناهض لحكومة الباي، ابن قندوز الذي ينتمي إلى إحدى فروع عائلة أولاد مق ا رن، السابق الذكر، هذه الحركة، استطاع الباي أن يقضي عليها بمؤازرة ابن عبد السلام المق ا رني، ثم يدخل عاصمته منتصرا على القبائل المتمردة. وكان الحاج أحمد باي قد جمع كل أنصاره من الأت ا رك الذين قدموا معه من الجزائر، قصد إعداد جيش قوي يمكن أن يعتمد عليه، كما عمل بجدية على تحصين عاصمته قسنطينة، ثم قام ببناء ثكنات جديدة مستوعبا بها جنودا من الوطنيين الجزائريين، ثم نصب نفسه" باشا "كخليفة للداي حسين.

المحاولات الفرنسية لاخضاع الحاج احمد: حاولت فرنسا أن تقضي على هذا القطب من أقطاب المقاومة الشديدة ضد الاستعمار، ولكن محاولاتها باءت بالفشل، و التزم الحاج أحمد موقفا عدائيا تجاهها، لقد طلب الجينرال **بورمون من الحاج أحمد باي** أن يسلم نفسه لفرنسا، و لكن هذا الأخير رفض رفضا باتا، فكانت محاولة فاشلة، تلتها محاولة الجينرال كلوزال الذي اعتقد أنه بمقتضى مرسوم مؤرخ في 15 ديسمبر 1830 يستطيع عزل الباي و منح أحد أشقاء باي تونس الخلافة على بايلك قسنطينة، لكنها كانت أيضا محاولة فاشلة، فضلا عن رفضها رسميا كمشروع من طرف الحكومة الفرنسية. ولما قدم الدوق دي روفيقو إلى الجزائر لتولي منصب الحاكم العام في 1831/12/17سعى أيضا لحمل الباي أحمد على الاعت ا رف بالسيادة الفرنسية، أما المفاوضات التي دارت بين الرجلين بواسطة حمدان خوجة، صاحب كتاب" المرآة "قد باءت هي الأخرى بالفشل الذريع، ذلك أن أحمد قد رفض رفضا قاطعا كل استسلام مخالف لتعاليم عقيدته الإسلامية، ففي رسالة مؤرخة في 14 ديسمبر 1832 ، بعث بها الباي إلى حمدان خوجة ردا عن المهمة التي كلفه بها الدوق و التي تستهدف استسلامه لفرنسا، حسم أحمد الموضوع، قائلا ..."لقد وقع السؤال منهم سابقا (الفرنسيون) من أول الأمر وتكرر صدور الجواب منا بعدم الإمكان، ونتيجة لعدم استجابة الباي، حاول المستعمر استغلال التيار المناوىء لسياسة أحمد لضرب الجزائريين

بعضهم ببعض، فقد لجأ الدوق إلى هذه الطريقة كمحاولة لاختصار الطريق قصد الاقتصاد في الدم الفرنسي وتكاليف الحرب؛ إذ شجع كثيرا فرحات بن السعيد للقضاء على حكومة الباي. كما حاول المستعمر أيضا استغلال عداء بعض شيوخ القبائل للحاج أحمد، وترغيبهم في القدوم إلى العاصمة، من ذلك مثلا، محمد ابن أحمد الغضبان، شيخ أولاد عبد النور والمرابط سي الحسين بن عزوز من أولاد بن عزوز بالزاب الظهري، وغيرهما كما فكر الجينرالات الفرنسيون في استدراج وجلب عائلة ابن جلاب بتوقرت لتكوين حلف ضد الباي .ولكن هذه المحاولات لم تفلح كذلك .

احتلال مدينة عنابة: في 21 جانفي 1836 م، قام كلوزال بإصدار أمر إلى المملوك يوسف للذهاب إلى مدينة عنابة، حيث شن غارات وحشية على السكان، بلغ فيها إلى درجة قتل الأطفال والنساء والشيوخ كان المملوك يوسف قد شجع كثيرا الماريشال كلوزال لشن حملة على مدينة قسنطينة، فبدأ العمل على إعداد الحملة الأولى في نوفمبر 1836 م والتي انتهت إلى فشل ذريع تاركة آثارها الوخيمة، ماديا ومعنويا في نفسية المستعمر، كما ترتب عليها تعويض الماريشال كلوزال بالماريشال دامريمون، ذلك أن تلك الحملة، قد فوجئت بمقاومة شديدة قادها الباي أحمد بحماس، شّد أزره الكثير من القبائل القسنطينية. وحاول دامريمون، في البدء التفاوض مع الحاج أحمد، طالبا منه، الاعتراف بسيادة فرنسا وتقديم ضريبة سنوية، لكن الباي رفض تلك الاقتراحات. وهكذا استطاعت فرنسا أن تتفرغ كليا لتكسير هذا الدرع القوي، خاصة بعد اتفاقية تافنة (ماي 1837) بين المستعمر و الأمير عبد القادر التي بمقتضاها، تم إيقاف القتال بين الطرفين، هذه الاتفاقية عارضها بشدة الباب العالي. وكان الحاج أحمد على علم بكل التحركات الاستعمارية و الاستعدادات لشن حملة أخرى على مدينة قسنطينة، فأعد العدة واستعد لذلك ، كما أرسل المارشال دابرمون إلى السكان بقسنطينة، برسالة تعهد زائف ووعود كاذبة .

احتلال مدينة قسنطينة: دخل العدو إلى قسيطينة دخول الفاتح الفاتك فعاث فيها فسادا، وأجبر أهلها على الذل والهجرة و سكن الجنود الأعداء في دور أهل البلاد وسكن قوادهم في الفيلات وقصر الباي، واستولوا على أموال الإقليم ونصبوا واحدا من عائلة الفكون (وهو حمودة الفكون) في وظيفة قائد المدينة، وأنشأوا هناك (مكتبا عربيا) ووزعوا مسؤوليات على بعض أعوان الحاج أحمد السابقين .كان سكان قسنطينة سنة 1837 حوالي ثلاثين ألف نسمة، فإذا بسكانها المسلمين لا يتجاوزون عشرين ألفا سنة1845. وإذا بالجاليات الأوربية تتزايد وتتضخم وقسمت المدينة إلى حي عربي وحي أوربي، لتبدأ رحلة الاستيطان. فكر المستعمر بعد احتلال مدينة وقسنطينة في إخضاع القبائل و السكان لسيطرته، لذلك نجده يتبنى سياسة مشوبة بالحيطة و الحذر، تستهدف المحافظة على الوضع الراهن وتجنب كل اصطدام بالجزائريين، و بالرغم من احتلال عاصمة بايلك الشرق، فان هذا الاحتلال لم يحقق تقدما استعماريا ملموسا بالبلاد، بل ظل جزئيا، يقتصر، فقط،على الشريط الساحلي، بالإضافة إلى العزلة التي كان يعيشها، فإن المقاومة الشعبية تزداد إتساعا في كل أنحاء البلاد. ولم يرضي الحاج احمد بأن تبقي عاصمته تحت الاحتلال لدلك جمع ألف فارس وعدد كبير من المشاة وعسكر بسهل طاقة على بعد 25ميل من مدينة قسنطينة، في شهر أكتوبر 1841 م استعدادا لشن حملة على العدو .علمت السلطات الاستعمارية بذلك، فجهزت قواتها تحت قيادة الجن ا رل نقربي وخرجت في طابور ضخم، دارت المعركة بين الطرفين على أشدها، قتل فيها تسعة جنود من قوات المستعمر وجرح 82 من بينهم ثلاثة ضباط، في حين نهب العدو وأخذ من المواشي عددا كبيرا، أما الباي فقد انسحب، بعد ذلك إلى الأوراس لإعداد العدة. و في نهاية سنة 1843 ، تم تعيين الدوق دومال لقيادة مقاطعة قسنطينة، فركز العمل لوضع حد لمقاومة الحاج أحمد التي أرهقت القوات الغازية و عكرت عليها صفو الحياة و جو الاطمئنان، انطلقت المعركة بين الطرفين بالأوراس في ربيع سنة 1844 م، حيث استطاع الباي أن يباغت العدو فينقض عليه، في حين تخلى الدوق عن المعركة و سارع للالتحاق بمدينة بسكرة،ذلك أن خليفة الأمير عبد القادر، أحمد بلحاج قد هاجم الحامية الفرنسية المقيمة هناك، محدثا بها خسائر كبيرة في الأرواح و العتاد .

اتصالات الباي لزيادة نشاط المقاومة: ولمضاعفة المقاومة، كثف أحمد باي اتصالاته من جهة أخرى بعناصر بارزة ذات تأثير ونفوذ بالبايلك، من ذلك مثلا، وكيل الباي في السابق ابن قشي، والميهوب، شيخ زاوية طولقة، وغيرهما .هذه الاتصالات كانت تستهدف البحث عن مخرج للتخلص من هذا الاستعمار الغاشم، كما كان في تلك الفترة، الكثير من قبائل الجنوب القسنطيني، قد أعطت ولاءها ومساندتها المطلقة للباي ضد العدو، مما أدى إلى تفاقم الوضع وتخوف فرنسا من اندلاع ثورة شاملة، لذا

قام الجنرال بيدو الذي خلف الدوق دومال في ماي 1844م بإعداد حملة عسكرية ضخمة وهاجم على حين بغتة القبائل حليفة أحمد وهي على التوالي :قبيلة .أولاد داوود، أولاد عبدي وأولاد ودجانة . ومهما يكن، فان أحمد باي لم يفشل في محاولة تعبئة القبائل ومواصلة الكفاح ضد المستعمر، بالرغم أيضا من الحالة المزرية التي كان يعيشها، من عدم الاستقرار والمعاناة اليومية. كان ضباط المكاتب العربية آنذاك قد كلفوا من طرف السلطة العليا بمتابعة تحركات أحمد واتصالاته .هذا في الوقت الذي سارع فيه النقيب بواسني رئيس إدارة الشؤون العربية بقسنطينة لإخطار حكومته عن وصول رسائل من سلطان القسطنطينية إلى الباي « ... تبشره بإعادة تنصيبه كباشا للجزائر، مشجعة إياه على إعلان هذا الخبر بين العرب المخلصين له » إلا أن تركيا لم يكن بإمكانها ذلك ولا تستطيع أن تفعل شيئا، سوى، تقديم بعض الوعود للباي. وبدأت السلطات الاستعمارية تعمل أكثر من ذي قبل للقضاء على مقاومة الحاج أحمد الذي بات وجوده بالأوراس يهدد كيانها الاستعماري .وفي هذه المرة، تم اكتشاف شبكة من الاتصالات واسعة النطاق كانت تجري بين الباي وبعض الشخصيات القسنطينية المثقفة وغيرها، لإعداد العدة للانقضاض على العدو .من بين تلك العناصر :المفتي المالكي، سي الحاج مبارك، المفتي الحنفي، ابن فتح الله وكيل بيت المال، سي علي بن النوي... الخ، الأمر الذي دفع بالمستعمر إلى «الضرب بعنف لتهدئة الرأي العام الشعبي الثائر ». ضد الاحتلال .ذلك أن القبائل، كانت تنتظر اللحظة الحاسمة لتفجير الثورة. **نهاية الحاج أحمد:** شعر الاستعمار الفرنسي بقوة هذا الرجل وصلابته في الدفاع عن دينه ووطنه، لذلك سخر كل ما عنده من عدة وعتاد لوضع نهاية لمقاومة هذا القطب .كان الباي أحمد وقتئذ مقيما بالأوراس ولقد « بات من الصعب استسلامه للسلطة الاستعمارية » لذلك حاصرت القوات الفرنسية من مختلف الجهات بلاد الأوراس طيلة شهر ماي وبداية جوان عام 1848م كان العقيد كونروبار والنقيب **سانت جارمان** يشرفان على تنفيذ العمليات العسكرية، في حين تعسكر النقيب ديبوسكي بالزاب الشرفي ما بين وادي منصف وزريبات الوادي .في تلك الفترة، لم تكن حالة الباي الصحية والعسكرية تسمح له بمواصلة الكفاح، بالإضافة إلى أن معظم القبائل هناك قد حوصرت حصارا شديدا فلم يعد بمقدورها مؤازرته أو حمايته، فاضطر، بذلك، إلى طلب الأمان مذكرا السلطة الفرنسية ب « سمو معاليه في السابق من أجل أن يعامل بشرف ». وتم استسلامه يوم 5 جوان من نفس السنة إثر استسلامه، مكث الباي بمدينة بسكرة تحت مراقبة السلطة الفرنسية مدة يومين، ثم نقل في اليوم الثالث إلى مدينة قسنطينة : « وفي أثناء الطريق استحوذت (أي الباي) علي أفكار متعددة :أنني أذهب بلا أملاك ولا قوة إلى المدينة التي أرتني سيدا في أوج عزتي وحيث مارست سلطة السيادة، ولكن الله كيف نفسي وتجلت إرادته .وأي إنسان يستطيع الإفلات من أيدي القدر فسبحان الله وجل جلاله ». وهكذا، وبالرغم من الوعود التي قدمت له من طرف فرنسا، فقد أجبر الحاج أحمد باي على الإقامة الجبرية بمدينة الجزائر تحت رقابة المستعمر، دون تحقيق أي وعد منها .فلقد راسل أحمد النقيب دي نوفو، مدير الشؤون العربية بقسنطينة، طالبا منه السهر على جميع ثرواته وأمتعته، التي تركها إثر احتلال قسنطينة .كما كاتب الحاكم العام شانزي حول هذا الموضوع بتاريخ 2 مارس 1850 م ، ولكن دون جدوى، إذ اعتبرت السلطة الاستعمارية أن الاستجابة لمطالب الحاج أحمد، ستكون لها انعكاساتها السلبية على السياسة الاستعمارية لذا خصصت له منحة سنوية لسد حاجاته ومصاريفه الضرورية، إلى غاية وفاته عام1850 .